SEBHA UNIVERSITY JOURNAL OF HUMAN SCIENCES VOL.24 NO. 2 2025
DOI: 10.51984/JOHS.V24I2.4298

جامعة سبها للعلوم الإنسانية مجلة
Sebha University Journal of Human Sciences

Journal homepage: http://www.sebhau.edu.ly/journal/johs

الإبستمولوجيا اللاعقلانية عند بول فيرابند

سالمة الغزالي عبد الله

قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة سرت، ليبيا

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الابستمولوجيا اللاعقلانية التي طرحها بول فيرابند، والتي أثارت جدلاً واسعاً في أوساط فلسفة العلم، يكفي أنها قوضت المفهوم الأساسي في المعرفة العلمية، وهو مفهوم المنهج العلمي، حيث أنكرت وجود منهج واحد للعلم، معتبرة أن هناك مناهج متعددة تتداخل فيه، لقد عمل فيرابند على إنهاء هيمنة العلم وسطوته على الإنسان، رافضًا تمييزه عن سائر المعارف الإنسانية. وقد أزال عنه صفة القدسية، معتبرًا إياه مجرد نتاج بشري لا يختلف عن سائر المعارف والإبداعات الإنسانية، وهو يرى أن العلم المعاصر قد تحول إلى أيديولوجية، جعلت الإنسان رهينة لها، حيث دخلت إلى حياته وقيّدت حريته، وعمل فيرابند من خلال فلسفته على تحرير الإنسان من العبودية الجديدة عبر إعادة الاعتبار لجميع المعارف الإنسانية، مما جعل فلسفته تعكس توجهًا إنسانيًا ساميًا ، وقد انطوت فلسفته على قدر كبير من التميز والابداع والاصالة كونها فتحت آفاق ورؤى جديدة في دراسة العلم والظاهرة العلمية.

الكلمات المفتاحية:

الأبستمولوجيا
العقلانية
الفوضوية
اللاعقلانية

Paul Feyerabend's irrational epistemology

Salma Al-Ghazali Abdullah

Department of Philosophy, Faculty of Arts, University of Sirte.

A B S T R A C T

This study aims to shed light on the irrational epistemology proposed by Paul Feyerabend, which has sparked widespread controversy in the philosophy of science circles. It is enough that it undermined the basic concept of scientific knowledge, which is the concept of the scientific method, as it denied the existence of a single method for science, considering that there are multiple methods that overlap in it. Feyerabend worked to end the dominance and authority of science over humanity, refusing to distinguish it from other human knowledge. He removed its sacred character, considering it merely a human product which is not different from other human knowledge and inventions. And he believes that contemporary science has become an ideology that has made humans hostage to it, as this ideology has entered their lives and restricted their freedom. Through his philosophy, Feyerabend worked to liberate humans from the new slavery by restoring respect for all human knowledge, which made his philosophy reflects a sublime human orientation. His philosophy contained a great deal of distinction, creativity, and originality, as it opened up new horizons and visions in the study of science and scientific phenomena.

Keywords:

Epistemology
Rationalism
Irrationality
Anarchism

1. المقدمة

تعد صفة اللاعقلانية واحدة من أبرز ميزات فلسفة العلم في النصف الثاني من القرن العشرين، وذلك نتيجة لطبيعة العلم والتطور التقني ؛ فلقد أدت ثورة العلم المعاصر إلى زعزعة جميع المبادئ والأسس النظرية والمنهجية التي بُني عليها العلم الكلاسيكي حيث برزت الابستمولوجيا المعاصرة من خلال تيارات جديدة اتسمت بنقد عميق وحاد هز الثقة في كل ما هو ثابت ومطلق في مجال العلم، ولعل أبرز هذه التيارات فلسفة بول كارل فيرابند PAUL KARL FEYERABEND (1924 -1994 م)، التي تميزت بنقدها الحاد للمنهج العلمي الذي كانت الفلسفات السابقة تدافع عنه بشدة، وأعادت تقييم مكانة العلم وعلاقته بأنماط المعرفة الأخرى، قدمت رؤية جديدة للعلم، حيث خالفت جميع النظريات المعروفة في مجال فلسفة العلم، وناقضت المناهج المتبعة، ورفضت أن يكون للبحث العلمي منهج محدد، نظرًا لأنه يتسم بتعددية منهجية، وقد أبان فيرابند ذلك فيما سُمي باللاعقلانية

*Corresponding author:
E-mail addresses: dr.salma_alghazle@su.edu.ly

Article History : Received 24 July 2025 - Received in revised form 19 September 2025 - Accepted 30 October 2025

الابستمولوجية.

واستنادًا إلى هذا التصور **تدور إشكالية البحث** حول العلاقة بين العقلانية واللاعقلانية، من خلال السؤال التالي: ما مدى تقدم العلم في ظل اللاعقلانية الابستمولوجية؟ وما الحجج التي قدمها فيرابند لهدم المنهج العلمي؟ ما الأفكار الجديدة التي تقدمها نظريته للمشروع العلمي؟ وغيرها من التساؤلات الفرعية التي سنجيب عليها في البحث.

والمنهج المعتمد في هذا البحث يهدف إلى دمج ما يمكن من أربعة مناهج، حيث يتم الاستناد إلى المنهج التحليلي لدراسة أفكار فيرابند، والمنهج المقارن تحليل الفروق بين العقلانية واللاعقلانية، فضلاً عن مقارنة أفكاره بوجهات نظر فلاسفة آخرين. في حين يعتمد المنهج التاريخي على استعراض تاريخ العلم وتقديم أدلة علمية لدعم أراءه المطروحة وتبرير مواقفه، والمنهج النقدي؛ بوصفه أداة تحول دون الوقوع في الأخطاء والأحكام المسبقة، حيث يلعب دورًا أساسيًا في كشف عيوب ومزايا النظرية. إن تنوع هذه المناهج يعود إلى طبيعة الموضوع، ومن المؤكد أن هناك ارتباطًا وثيقًا بينها في توصيل المعنى.

ويهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على الجوانب اللاعقلانية في فلسفة فيرابند، بهدف تحقيق فهم دقيق لها وكشف الرؤية النقدية الفلسفية التي وضعها فيرابند، ومن المهم دراسة الاعتراض الذي يزعم أن اللاعقلانية تتناقض مع العلم، بينما يرى فيرابند أنها تشكل أحد أهم أسس البحث العلمي، فوفقًا لرؤية فيرابند لم يعد العلم يتبع قواعد وأسس عقلانية تتميز بالدقة والموضوعية، ولكنه مشروع لاعقلاني فوضوي يقوم ويتطور على انتهاك القيم العقلانية السائدة.

أولا: مفاهيم ومصطلحات

1- مفهوم العقلانية:

يطلق مفهوم العقلانية (Rationality) على كل نزعة فلسفية تمجد العقل وتجعله المصدر الأول للمعرفة، فهي مذهب فكري يقول بأولوية العقل، وأن جميع المعارف تنشأ من المبادئ العقلية القبلية الضرورية الموجودة فيه، والتي هي ليست من الحس أو التجربة (لالاند. أندريه، 2001، ص 1172)

ويطلق على المعرفية العلمية بأنها معرفة عقلية إذا كانت تستند إلى العقل في تأويله للملاحظة والتجربة. (وهبة. مراد،2007، ص 428)

بذلك يختلف مفهوم العقلانية (Rationality) عن مفهوم المذهب العقلي (Rationalism)، الذي يؤمن بالعقل باعتباره الحقيقة النهائية المطلقة للوجود، وإن الكون والواقع ليسا سوى تجسيد للعقل، الذي يُعتبر أصل المعرفة ومصدرها، أما العقلانية فتشير إلى القدرة الكاملة للعقل على إجراء البحث العلمي لكشف حقائق الكون دون الاعتماد على أي سلطة خارجية، وخاصة الدين. وقد كانت الحركة العقلانية بمثابة رد فعل قوي ضد هيمنة رجال الدين واحتكارهم للعلم والمعرفة خلال العصور الوسطى في أوربا ، والعقلانية كما تظهر في فلسفة العلم فهي تعني الايمان بوجود حقيقة موضوعية ومطلقة، مع وجود منهج أو معيار يمكن تطبيقه في جميع الأوقات والأماكن. (موسى. كريم، 2012، ص 24)

إذا يقصد بالعقلانية التي يتميز بها العلم هي مجموعة المفاهيم والتصورات والمناهج العلمية التي ساهمت في تشكيل عقلية الإنسان، فإن هذه المفاهيم قد صاغها العلماء في العصر الحديث عندما حقق العلم الطبيعي تقدمًا ملحوظًا على الصعيدين المعرفي والتطبيقي.

العقلانية لا تقتصر على النشاط العقلي البحت، بل تعبر عن القدرة على وضع قواعد منظمة وتطبيقها واختبارها للتأكد من صحتها. ثم تتحول هذه القواعد إلى تقليد متوارث، مما يسهم في تشكيل عقل جديد، حيث تُمنح هذه القواعد قيمة مطلقة، وتتكون عقلية مؤسسّة جديدة، لذا، من المهم التمييز بين العقل المؤسس والعقل المتأسس؛ العقل المؤسس يشير إلى مجموعة القواعد والإجراءات المتبعة في البحث العلمي، بينما العقل المتأسس يمثل تلك القواعد التي اكتسبت قيمة مطلقة بعد أن تم اعتمادها، هذا يعني أن الثاني يحل محل الأول ويزيحه؛ ومن هنا نستنتج أن القيم العقلية ليست ثابتة أو مطلقة، و ليست إطارًا مفروضًا على الظواهر. على العكس، يجب أن تتكيف القيم العقلانية مع الظواهر، فهناك تفاعلًا متبادلًا بين الفكر والواقع في جميع الأنشطة العلمية. وهذا التفاعل المحدد هو الذي يحدد قيم العقلانية. فالعقل والعقلانية هما نتاج نشاط يتأثر بالميول والاتجاهات، مما يجعلهما عرضة للنقد والتحليل وإعادة التقييم. (الجابري. محمد عابد، 2009، ص15)

2-مفهوم اللاعقلانية؛ أو اللامعقول (Irrational): فهو مصطلح يدل على الحدود التي يتوقف عندها التفسير العقلاني الذي يسعى باستمرار للكشف عن الهوية والتشابه. (وهبة. مراد، 2007، ص 535)، تشير اللاعقلانية بشكل عام إلى كل ما يتجاوز حدود العقل في مجال المعرفة، متجاوزةً الجهود السابقة التي بذلها العقل لفهم التشابه الذي يشكل المحتوى الفكري الذي يفترض وجود تنوع معين لا يمكن تصور الواقع بدونه؛ كما تمثل اللاعقلانية حدًا دائمًا للتفسير والمعقولية. (لالاند. أندريه، 2001، ص 709)

واللاعقلانية في فلسفة العلم عند فيرابند فهي ثورة ضد جميع المناهج والقيم العقلانية التي اختزلت المشروع العلمي في إطار من القواعد والمعايير المنهجية الثابتة التي لا يُسمح بالشك فيها، والتي تتميز بالموضوعية والثبات؛ في المقابل، ترى اللاعقلانية أن المشروع العلمي هو مشروع معقد يتسم بالفوضى والأخطاء والتطورات غير المتوقعة التي لا يمكن تفسيرها وفقًا للقيم العقلانية السائدة .

3 – مفهوم الأبستمولوجيا: الابستمولوجيا Epistemology مصطلح مشتق من اللغة اليونانية مركب من لفظين episteme ومعناها المعرفة وlogos ومعناها علم؛ فيصبح معنى الابستمولوجيا نظرية المعرفة أو فلسفة العلوم، والابستمولوجيا هي أحد فروع الفلسفة، ويعنى بدراسة أسس العلوم ومبادئها وفروضها والمناهج المستخدمة فيها، فضلا عن التحقيق في المصداقية والقيمة الموضوعية لها دراسة نقدية. (وهبة. مراد، 2007، ص12)

4 – مفهوم الفوضوية: الفوضوية أو الأناركية، anarchos هي مصطلح سياسي في الأساس، مشتق من الكلمة اليونانية "Anarchism" والتي تعني بدون سلطة، في اللغة العربية، يُشتق مصطلح "الفوضوية" من كلمة "فوضى"، التي تعبر عن غياب التنظيم والترتيب، وتُعتبر نقيض النظام. (صليبا. جميل،1982 م، ص 169)

لم يستخدم فيرابند المصطلح بالمعنى السياسي الشائع، بل أشار به إلى غياب سلطة معينة. وهذا ما يميز رؤيته عن الفوضوية السياسية، ويقربها أكثر من بعض الاتجاهات الفنية المعاصرة، الدادية (Dada)تحديدًاوهي اتجاه أدبي وفني عالمي برز بشكل لافت في بداية القرن العشرين من بين عامي 1915 و 1922 ويرفض وجود قواعد محددة يخضع لها الفن والأدب، ويُعتبر

الصدفة هي القانون الوحيد المقبول، ويُنظر إلى الخيال على أنه الحقيقة الوحيدة التي تستحق القبول .وقد تبنّى فيرابند أفكار هذه الحركة نظراً لتوافقها الكبير مع فلسفته الخاصة. (فيرابند. بول، دون تاريخ، ص 32)؛ وترفض هذه الفوضوية وجود أي قواعد، رغم أنها تعتمد على جميع القواعد، وتعتبر الصدفة وسيلة للابتكار. كما ترى أن الحقيقة المقبولة هي في جوهرها خيال. كانت فوضويته مزيجًا من الفوضوية السياسية والدادية، بالإضافة إلى تأثرها بالنزعة النسبية. (فيرابند. بول، دون تاريخ، ص 26)

أولًا جدل العقلانية واللاعقلانية:

أثارت ثورة العلم المعاصر قضايا إبستمولوجية هامة ومتنوعة؛ فهذه الثورة لا تتجلى في تغيير معايير الكون والواقع، بل تظهر أيضًا في تغيير مبادئ التفكير؛ حيث طرأت تغييرات على أسس التفكير، مما أدى إلى ظهور إشكالية كبيرة وأحدث خللاً في نظام الأبستمولوجيا العقلانية التي حاولت استيعاب وتفسير العلم المعاصر الذي يتسم باللاحتمية واللايقين والصدفة والتغير، من خلال منظومة الحتمية واليقين والوضوح والبساطة والثبات، هذا ما جعلها عاجزة عن مواكبة الثورة العلمية المعاصرة في مجالي فيزياء الكم والنسبية، وأوجد حاجة ملحة لتطوير أبستمولوجيا جديدة تتناسب مع التطورات العلمية المعاصرة ،(أومنيس .رولان ، 2008 م، ص 171) تجسدت في الابستمولوجيا اللاعقلانية ، والتي هي المشروع الأساسي لفيرابند كما سنرى لاحقًا .

لذا، لم تعد الابستمولوجيا العقلانية التي يقدمها العلم الكلاسيكي، ذات البُعد الواحد ،والتي تختزل الكون في كيانات وجواهر مغلقة وثابتة لا تقبل الاختلال أو التناقض، كافية ومرضية فضلاً على أنها تستبعد جميع الأبعاد الروحية والفكرية للحياة الإنسانية من النشاط العلمي، على الرغم من كونه نشاطًا إنسانيًا، و قد يكون هذا أحد الأسباب التي دفعت فيرابند إلى إدراك أهمية إصلاح النظام الفكري الغربي، حيث يُعتبر العلم من العناصر الأساسية في هذا النظام، بعبارة أخرى، عمل على الخروج من دائرة الأبستمولوجيا العقلانية إلى أبستمولوجيا جديدة لاعقلانية ، عملت على تغيير معايير الكون من خلال إعادة تشكيل وتغيير أسس التفكير في هذا الكون.

كان نقد العلم الكلاسيكي هو الأساس الذي استند إليه فيرابند في مشروعه اللاعقلاني، حيث عمل على تفكيك العقلانية العلمية الكلاسيكية القائمة على مبادئ الصدق والصواب، وموضوعية النظريات العلمية وعلاقتها بسياقها التاريخي ، فضلاً عن المنهج العلمي السليم الذي يسهم في الوصول إلى الحقائق العلمية من خلال الالتزام بمجموعة من القواعد والمعايير العلمية والتي تُستخدم كمعيار للتمييز بين العلم وأنماط المعرفة الأخرى، كما تُساعد في إجراء المقارنات بين الفروض والنظريات العلمية المتنافسة، ويرفض فيرابند هذه الأسس من خلال نظريته اللاعقلانية، التي يقابل فيها بين النظام والفوضى كما يظهر في الحوار (التحاور)، مستندًا في أفكاره إلى التطورات العلمية المعاصرة، التي قامت على أسس مغايرة لما سبقها، كما أنه يرفض الفصل بين العلوم وفق المبدأ الديكارتي القديم ويسير في نظريته إلى منتهاها عندما يوحد بين العلم وسائر الأنماط المعرفية، و يواصل فيرابند جهود الفلسفة المعاصرة في تفكيك ونقد العقلانية المطلقة، وهو المشروع الذي ظهر عند كارل بوبر k. popper(1902-1994 م) من خلال منهج التكذيب، وباشلارG. Bachelard(1884 -1962 م) عبر مفهوم القطيعة الابستمولوجية، وتوماس كون T.kuhn (1922 -1996م)من خلال فكرة الثورة العلمية، ولوكاتش I. Lakatos(1922 -1974 م)من خلال برامج البحث العلمي، إذ بدأ يتفكك مقياس العلم الخاضع لمبدأ التجريد والاختزال والفصل، الذي تشكل مع ظهور العقلانية التي بدأت مع ديكارت R. Descartes (1596 - 1650) والتي استندت بشكل أساسي إلى الموضوعية التي تعتمد على الفصل بين الذات المفكرة (The thinking self) والموضوع الشيء الممتد(The extended thing)، هذا يعني الفصل بين عالم الفكر وعالم الطبيعة، أو بعبارة أخرى، الفصل بين الفلسفة والعلم، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل اعتبر ديكارت أن الأفكار الواضحة بذاتها تشكل الأساس للبحث عن الحقيقة، كانت هذه العقلانية تتناسب مع مرحلة معينة من مراحل تطور العلم، وهي مرحلة العلم الكلاسيكي، لكن الأمور تغيرت مع تقدم العلم المعاصر، حيث لم يعد بالإمكان تفسير هذا التطور وفقًا لعقلانية العلم الكلاسيكي، وبدأت الأمور تتجه نحو اللاعقلانية. (قطب. خالد، 2005، ص 95)

تزامن دخول العلم الحديث إلى مجالات الذرة والإشعاع مع حدوث تغيير جذري في طريقة فهم الواقع ؛ ففي الفيزياء الكلاسيكية كان العلم يعتمد على التجربة الحسية أي على الأفعال المرئية التي يمكن التعبير عنها بسهولة بالكلمات، وبذلك يمكن الوصول إلى المبادئ والقوانين التي تمثل تركيبًا للوقائع ،وقد كانت الرياضيات تلعب دورًا محوريًا في العلم الكلاسيكي من خلال تمثيل هذه القوانين بشكل رياضي كل ذلك بهدف حصر المعرفة في نطاق الحس، والفصل الواضح بينها وبين المواضيع الفكرية التي اعتبرت جميعها ضمن الميتافيزيقا، لكن هذا الأمر شهد تحولًا جذريًا عندما دخلت الفيزياء المعاصرة إلى مجالات جديدة من الظواهر الطبيعية التي لا يمكن إدراكها بالحواس، ولا يمكن الاعتماد فيها على الحس المشترك أو المبادئ التي كانت تستند إليها الفيزياء الكلاسيكية؛ فالظواهر الجديدة في الفيزياء المعاصرة مثل الذرات غير قابلة للإدراك الحسي أو التحديد المباشر، ولا يمكن مناقشتها إلا باستخدام مصطلحات رياضية ،وهذا يشكل نهاية لدور المفاهيم العينية الملموسة التي كانت سائدة في الفيزياء الكلاسيكية، مثل مفاهيم الموضع والسرعة والقوة، هذه المفاهيم التي أضفت الرياضيات عليها مزيدًا من الدقة، دون التأثير على معناها الحدسي الأصلي، تم استبدال رؤيتها الواضحة برؤية أكثر تجريدًا لا يمكن مقارنتها بها، و أصبحت تصورات المجال الكهربائي والمغناطيسي تتجاوز كونها مجرد تعبير رياضي يعكس فكرة معينة، بل و أصبحت الشكل الوحيد الواضح والممكن لها، في قوانين الفيزياء المعاصرة توجد بعض القوانين التي تتضمن علاقات رياضية تربط بين كميات محددة، بينما تعكس قوانين أخرى العلاقة بين هذه الكميات ؛فبعض قوانين الفيزياء المعاصرة عبارة عن علاقات رياضية بين كميات معينة، بينما تعبر أخرى عن الترابط بين هذه الكميات، بعضها الآخر يعبر عن حركتها وتطورها عبر الزمن. فقد أصبحت الفيزياء تعتمد على مبادئ نظرية تمنع أي تفسير حسي واضح، مما يثير تحديًا للحس المشترك. (أومنيس. رولان ،2008 م، ص 24، ص 171)

هذا يعد تغييرًا جذريًا في المعايير التي استندت إليها نظرية المعرفة، ومن أبرزها الاعتقاد في موضوعية العلم. ففي حين آمن العلماء الكلاسيكيون بأن للعالم فيزيائي وجود موضوعي يظهر بشكل ثابت من خلال قوانين مستقلة عن الذات العارفة التي تتبنى دور المشاهد والمتفرج في هذا العالم، ويصبح العلم موضوعيًا بقدر ما يستطيع التعبير عن هذه الصورة المستقلة كان ذلك ممكنًا عندما كانت الفيزياء تركز على دراسة الظواهر الكبيرة التي يتم إدراكها

بالحواس أو بمساعدة بسيطة من الآلات، في حين أن العلم المعاصر يركز أبحاثه العلمية على دراسة الظواهر الميكروسكوبية التي أضحت المعطيات الأساسية للمعرفة العلمية، والتي لا يمكن ملاحظتها بواسطة الحواس ، ولا يمكن تحديد موقعها وسرعتها استنادًا إلى مفهومي الزمان والمكان المطلقين. بالإضافة إلى ذلك، فإن أساليب القياس والأدوات المستخدمة لها تأثير كبير لا يمكن تجاهله أو الاستغناء عنه في النتائج التي يتم الحصول عليها، وهذا يؤدي إلى أن تكون هذه النتائج احتمالية وليست حتمية، حيث يتداخل فيها الذاتي مع الموضوعي بشكل كبير. (جينز. جيمس ،1981 م، ص 196)، فالذات العارفة، التي تتمثل في الباحث العلمي أو المراقب، لم يعد من الممكن اعتبارها طرفًا محايدًا في عملية المعرفة، لكنها أصبحت عنصرًا فاعلًا ومشاركًا فيها، حيث ترتبط نتائج البحث بوجودها؛ بمعنى آخر لا يمكن فهم جسيمات المادة بمعزل عن أفعال وخيارات المراقب، الذي يُعتبر عنصرًا أساسيًا في هذه العملية وليس مجرد مشاهد.

يترتب على ذلك التأكيد على أهمية دور الذات (العقل) كعنصر أساسي في عملية المعرفة، وذلك من جانبين: الأول هو التأكيد على قيمة الفرض العلمي، والثاني هو الاعتقاد الذاتي الذي يلعب دورًا أساسيًا في تفضيل احتمال معين على آخر، علاوة على ذلك، تعزز الطبيعة الصورية للفيزياء المعاصرة من أهمية العقل في عملية اكتساب المعرفة، من خلال التأويل والخيال والإلهام والحدس، إذ أن المبادئ الأساسية للفيزياء المعاصرة تتجاوز حدود الإدراك الحسي، أصبح من الضروري افتراض وجود مراقبين في حالة حركة دائمة لتحديد الظواهر، حيث تُعرَّف الظاهرة وفقًا لما تظهر عليه في وعي المراقب، كما أن تحديد الظواهر التي تشكل موضوع الدراسة يتم من خلال استخدام مناهج رياضية احتمالية تتفق بالضرورة مع الوجود اليقيني للوقائع وهنا تبرز أهمية التأويل والخيال.(أومنيس. رولان، 2008، ص200).

بناء على ما تقدم يصبح الخيال عنصرًا أساسيًا في تحقيق الاكتشافات العلمية المهمة وإحداث قفزات علمية كبيرة، عن طريق صراعه مع القوانين العلمية السائدة والنظام بشكل عام، وحين ينتصر الخيال يتحقق التقدم العلمي؛ لذا يمكن رد التقدم العلمي لتجاوز قوانين الطبيعة بفضل الخيال. وتاريخ العلم خير شاهد على الدور الكبير الذي قام به الخيال في أبرز الثورات العلمية، من ثورة كوبرنيكوس Copernicus (1473-1543) وصولا إلى الثورة العلمية المعاصرة؛ إلى جانب أهميته في تحليل النظريات العلمية، وبرز دور الخيال بشكل خاص في الفيزياء المعاصرة، وذلك نتيجة لتعاملها مع كيانات ووقائع مادية لا يمكن رؤيتها أو أدراكها بالحواس، ولكنها رغم ذلك تؤدي إلى نتائج تجريبية يمكن ملاحظتها.(Popper. K, 1962, p 181)

إن التأكيد على أن القدرات الإبداعية للعقل، مثل الخيال والحدس تلعب دورًا في العلم يُعَدُّ تعبيرًا عن المثالية، حيث يبرز أهمية الذات الإنسانية كعنصر أساسي ومحوري في عملية المعرفة..(Russell. B ,2009, p1 .) دون أن يعني ذلك الاستغناء المطلق عن منهج الاستقراء؛ فالعلم المعاصر لا يهمل الواقع أو التجربة، فالاستقراء لا يزال موجودًا في العلم المعاصر سواء في مضمونه التجريبي أو في شكله العام الممثل بالتعميم، فالنتائج العقلية التي يتم التوصل إليها لا بد أن تكون مدعومة بشواهد واقعية للدلالة على صحتها، ولكنها جمعت بين العقل والتجربة فأصبح العلم يعالج مشكلاته من خلال المنظور الاستقرائي الاستنباطي.

لقد ساهمت هذه القواعد في تشكيل نوع جديد من العقلانية، والتي سرعان ما تحولت نتيجة للتطبيق العملي، إلى عقلانية ضرورية، إن العلاقة الجدلية بين العقلانية المُشكِلة والعقلانية المتشكلة تتيح للعقل إدراك حقيقته المرتكزة على الصيرورة ومن خلالها. إن التصور العلمي المعاصر ليس مجرد مجموعة من القواعد والأسس التي يتبعها العقل، والتي تحدد في الوقت نفسه ماهيته وطبيعته، بل إن ما يحدد ماهيته بشكل أساسي هو قدرته على استنباط هذه القواعد، (الجابري. محمد عابد، 2009، ص15 ،16) وبناءً على ذلك، لم تعد العقلانية، وفقًا لهذا الفهم، محصورة في مدى توافق مبادئ العقل مع قوانين الطبيعة. بل إن مفهوم العقلانية المعاصرة، أو بالأحرى اللاعقلانية، قد توسع ليشمل الإيمان بقدرة العقل على بناء أنظمة فكرية تهدف إلى تفسير جميع الظواهر الطبيعية، ويتم التحقق من صحتها من خلال التجربة.

بذلك يمكن القول إن النظرية العلمية المعاصرة قد أفسحت المجال لظهور مرحلة جديدة من الجدل بين العقلانية واللاعقلانية، حيث ساهمت في تفكيك أسس العقلانية الكلاسيكية التي كانت تختصر الكون في قوانين مطلقة وثابتة، في المقابل اعتمدت مبادئ احتمالية وغير مطلقة، تُعتبر مجرد محاولات لوصف الواقع مؤكدًا عليها بالتجربة ؛وهذا يعني الحاجة الملحة إلى تعديل أسس وقواعد العمل العلمي واستبدالها بقواعد جديدة تبدأ من الفكر وتتفق مع التجربة، وهذا ما يمكن اعتباره البداية الواضحة لمظاهر اللاعقلانية، فرغم استمرار وجود الاختبار والتجريب، إلا أنه فقد أهميته السابقة كمعيار أساسي وحيد للحقيقة، إذ يتعامل العلم المعاصر مع الاختبار كأحد النماذج المتعددة للبحث العلمي، حيث تقدم الظواهر الميكروسكوبية فرصًا عديدة للاختبار، وهذا يسمح للاعقلانية أن تتبوأ مكانة مهمة في البحث العلمي، فهي تتمكن من إنشاء عوالم ميكروسكوبية متنوعة، يعكس كل منها مبررًا معينًا، دون أن يدعي أي منها امتلاك الحقيقة المطلقة، وهي بذلك تمثل أحد جوانب المعرفة ، لكنها ليست الجانب الوحيد لها، في الوقت الذي كانت فيه العقلانية تدعي امتلاكها للحقيقة حول العالم، أصبح من الواضح في ظل اللاعقلانية أننا لا نملك رؤية شاملة للعالم، ولا يمكننا معرفة حقيقته كل ما نعرفه هو الصورة التي قمنا بتشكيلها عنه ،وهذا يعني انعدام وجود تصور واضح للواقع ،وهذا يفتح المجال واسعًا أمام عمل اللاعقلانية التي تعمل بشكل منفصل عن الواقع.

ثالثا: جوانب اللاعقلانية عند فيرابند

الانتقال من العقلانية إلى اللاعقلانية لم يحدث في مرحلة واحدة أو بطريقة بسيطة، بل هو نتاج لعدة مراحل سابقة مهدت لظهور الابستمولوجيا اللاعقلانية التي طرحها فيرابند؛ بل إن الاتجاهات اللاعقلانية ليست نتاج الفكر الفلسفي المعاصر فحسب، تعود فجذورها تعود إلى البدايات الأولى للفلسفة، ونظرًا لعدم قدرتنا على استعراض هذه الاتجاهات اللاعقلانية في الفلسفة ككل، ونظرًا لأن هذا البحث يركز على الابستمولوجيا اللاعقلانية التي عند فيرابند، سأكتفي بالإشارة إلى أن بعض فلاسفة العلم المعاصرين أمثال (كارل بوبر ، وباشلار ،وتوماس كون ،ولوكاتش) ممن سبقت الإشارة إليهم ،قد تناولوا الجوانب اللاعقلانية في البحث العلمي قبل ظهور أفكار فيرابند؛ محاولين تأسيس فلسفة للعلم متحررة من قصور الموضوعية المتطرفة والحيادية التي ترجع للنزعة الوضعية اللاتاريخية ، مؤكدين على منطق الكشف والنمو والثورة والتغيير، وكذلك القطيعة الابستمولوجية، مما أفسح المجال أمام اللاعقلانية التي وصلت إلى ذروتها عند فيرابند.

أسس فيرابند في لاعقلانيته العلمية على النقد، الذي يُعتبر الركيزة الأساسية لهذه اللاعقلانية. فقد كان النقد هو الخطوة الأولى في بناء هذه الفلسفة، حيث وجه فيرابند انتقاده نحو الأسس المنهجية المعروفة والمُعتمَدة، و أكد على أهمية تطوير رؤى وتصورات جديدة تتناقض مع الوضع الراهن، بحيث تحل محل العقلانية القائمة على الشمولية الحتمية والموضوعية، التي يعتبرها غير كافية لفهم جوهر التقدم العلمي، أعتبرها نوعًا من المثالية الزائفة، وتبسيطًا سطحيًا، وتجاهلًا للطبيعة المعقدة للعلم ودور الإنسان وقدراته في تحقيق التقدم العلمي، بالإضافة إلى تجاهلها للظروف الاجتماعية والتاريخية والثقافية وتأثيرها على تطور العلم، فإن إغفال هذه العوامل يفقد العلم طابعه الإنساني ويجعله أكثر انغلاقًا. (قطب. خالد، 2007 ،ص44)

من هنا تميزت لا عقلانية فيرابند بنقدها الحاد للعقلانية وكل الأسس التي ترتكز عليها، مثل وحدة المنهج والدقة، والموضوعية، والبساطة، والوضوح. كما انتقدت بشكل لاذع نموذج الحضارة الغربية والعلم، يعتقد فيرابند أنه لا يوجد مبرر للاعتقاد بوجود علاقة ضرورية بين العلم والعقلانية. ويقدم فيرابند العديد من الأدلة التي تدعم أفكاره المناهضة للعقلانية، والتي استخلصها من دراسته لتاريخ العلم، من أهمها أن أبرز سمات العلم هي كونه مشروع لاعقلاني وأنه خلال مسيرته التاريخية تم اختراق كل المعايير العقلانية ، وفقًا لفيرابند، فإن تقدم العلم وتطوره لم يتحقق من خلال الالتزام بقيم العقلانية، بل من خلال الخروج عنها وتبني مواقف تتعارض معها وأن هذه التجاوزات كانت ضرورية من أجل تقدم العلم ؛لأن تقدم العلم يتطلب التحرر من هيمنة العقلانية السائدة في فترة معينة، حيث يتخذ العلم شكلًا لاعقلاني، من خلال تفكيك الأسس والقواعد التي تقوم عليها العقلانية وفي نظره تعني اللاعقلانية أن جميع المناهج والنظريات تُعتبر مقبولة وفقًا لمبدئه المعروف "Anything Goes "كل شيء مقبول" (موسى. كريم، 2012، ص 347، 348)

ويبقى السؤال هنا ما المقصود باللاعقلانية التي اعتمدها فيرابند أساسًا لفلسفته العلمية؛ وهل المقصود بها العبثية وغياب أي قواعد عن العمل العلمي أم المقصود بها مخالفة أسس العقلانية الكلاسيكية؛ لا تعني اللاعقلانية لديه رفض العلم، بل تعني الانفتاح على جميع الخيارات والبدائل المنهجية مثل الخيال والحدس، والعاطفة، والأساطير، والسحر. بالنسبة لفيرابند، العلم أكثر لا عقلانية وفوضى وتعقيد مما تظنه العقلانية.

ناقش فيرابند فلسفته اللاعقلانية في جانبين اثنين هما الجانب المنهجي (الميتودولوجي)، والجانب العلمي (الابستمولوجي) ويشمل كلا منهما عدة عناصر بحيث يشكلان معا رؤية جديدة في فلسفة العلم ولا يتوقف فيرابند عند ذلك، ولكنه يسقط رؤيته هذه على المجال السياسي والمجال الاجتماعي.

1 - الجانب المنهجي (الميتودولوجي):

يقدم فيرابند رؤية منهجية جديدة تختلف تمامًا عن جميع التصورات المنهجية التي سبقته. فقد أسس لاعقلانيته المتعلقة بالمنهج على الفوضوية الابستمولوجية، التي يعتبرها البديل الأمثل للعقلانية والنظام والقانون، لإنها الوحيدة القادرة على تحقيق التقدم العلمي المطلوب يتضمن التصور الذي قدمه تناقضًا كبيرًا، حيث جمع بين مصطلحين متضادين: الابستمولوجيا، التي تعني الدراسة النقدية لمبادئ العلوم ومناهجها وفروضها ونتائجها؛ لتحديد أصلها المنطقي، كما أنها تعتمد على العقلانية كأساس لها، والتي تعني كما ذكرنا سابقًا النظام والقانون والمنهج القائم على أسس محددة. وهذا يتعارض مع الفوضوية التي تعبر عن اللانظام واللامنهج واللاقانون.

التعددية المنهجية:

تظهر وجهة نظر فيرابند بخصوص تعدد المناهج بوضوح في كتابه ضد المنهج" Against Method" الذي صدر عام 1975. في هذا الكتاب، يؤكد أن فلسفة العلم ارتكبت خطًا كبيرًا عندما ركزت بشكل كبير على السعي لإيجاد منهج مناسب للبحث العلمي، بينما يصر فيرابند على أن مسألة المنهج هي مسألة زائفة، فإن تطور العلم لم يكن محصورًا في منهج واحد محدد، فالعلم بنظره مشروع فوضوي "لا منهجي" لا يعترف بأي سلطة، حيث يمكن استخدام جميع المناهج فيه،(Feyerabend. P, 1993, p9) اللاعقلانية عند فيرابند لا تعني الفوضى أو إنكار أي أسس، بل تشير إلى التعددية في المناهج. فهو يعارض وجود قواعد صارمة وثابتة تُستخدم في البحث العلمي، ويدعو إلى اعتماد أساليب ومنهجيات متنوعة، مما يساعد في تقدم العلم..

يرفض فيرابند الإقصاء الذي تفرضه العقلانية الكلاسيكية، التي تؤكد على وجود منهج واحد فقط يُعتبر مناسبًا للبحث العلمي، وتستبعد جميع المناهج الأخرى؛ ويؤدي ذلك إلى إقصاء واستبعاد جزء كبير من البحث العلمي، وتجاهل العديد من الأنشطة المعرفية المهمة تحت ذريعة أنها غير علمية، (فيرابند. بول،2000، ص113)

تتمثل دعوة فيرابند ضد المنهج في مطالبته للعلماء والباحثين بالتخلي عن التمسك الصارم بقواعد المناهج العلمية، ؛ فلكل منهج حدود محددة لا يمكن تجاوزها، فإذا كان المقصود بالمنهج مجموعة القواعد التي تنظم سلوك العاملين في مجال العلم، فلا يمكن أن نجد منهج يمكن أن يُرشد العالم العقلاني بقبول نظرية علمية معينة والتخلي عن نظرية أخرى تتعارض معها، حيث سيتم اختيار النظرية التي تتناسب من وجهة نظر استقرائية مع الظواهر المعروفة و التي تتوافق مع سياقها، وسيتم استبعاد أي نظرية لا تتوافق مع الظواهر العامة المعروفة على نطاق واسع، لكن هذه القاعدة غالبًا ما تتناقض مع الكثير من اللحظات التاريخية الحاسمة في تطور العلم، خاصة خلال فترات الثورات العلمية. (قطب. خالد، 2007، ص 44 -45)

لذا يشدد فيرابند على أن الاعتقاد بوجود منهج علمي موحد يعتمد على أسس وقواعد ثابتة هو اعتقاد ساذج للغاية، لأنه يفترض أن الحقائق العلمية بسيطة، بينما هي في الواقع معقدة ومتداخلة، ثم إن الالتزام بمنهج واحد يتجاهل مسار التاريخ البشري الذي يثبت أن التطور العلمي والاجتماعي يحدث وفقًا لمفهوم الفوضى المنهجية، ومع ذلك، نلاحظ أن هذا الأمر يُغفل من أجل تحقيق نوع من الأمان الفكري الذي يستند إلى البساطة والدقة والوضوح والموضوعية في حين أن المبدأ الذي ينبغي عليهم اتباعه في دراسة التطور البشري هو مبدأ فيرابند، الذي يؤكد أن "كل شيء مقبول" (Feyerabend. P, 1993, p33).

يؤكد فيرابند أنه لا يمكن فهم وتفسير جميع التطورات التاريخية للعلم من خلال الاعتماد على قواعد منهجية ثابتة ويقينية، فهذا يضر بالعلم بسبب تجاهل الظروف الواقعية والتاريخية التي تلعب دورًا كبيرًا في تقدم العلم؛ لذلك يجب على الباحث في تاريخ العلم، ألا يقتصر على متابعة التطورات العلمية فقط ؛ بل يجب أن تشمل دراسته جميع التفسيرات المطروحة والحلول المقترحة للمشكلات المدروسة، بالإضافة إلى الأخطاء العلمية فكل هذه العناصر تشكل جزءًا أساسيًا من تاريخ العلم ؛ أن تتبع تاريخ العلم يبين

أنه مليء بالفروض الحدسية والتخمينات والأحداث التي تجاوزت المنهج التقليدي. على سبيل المثال، ثورة كوبرنيكوس، والثورة النسبية، وميكانيكا الكم فقد تحققت جميع هذه التطورات والإنجازات العلمية نتيجة لتجاوز العلماء للقواعد المنهجية التقليدية السائدة، لم يتمكنوا من الوصول إليها من خلال اتباع خطوات منهجية محددة، يؤدي الالتزام بها بشكل مستقل إلى تحقيق تلك الاكتشافات؛ أنما كان للظروف التاريخية والاجتماعية والخصوصية الشخصية دور كبير في تشكيل رؤية العلماء للعالم، مما أثر لاحقًا على النظريات العلمية.(قطب. خالد 2007، ص 46، 47)

لذلك يقرر فيرابند أنه لا يوجد منهج علمي واحد يمكن تطبيقه على جميع أنواع البحث العلمي، بل إن المناهج العلمية تتسم بالنسبية والتنوع، ولا يوجد منهج علمي يعتمد على قواعد ثابتة ومحددة يمكنها تفسير جميع النتائج العلمية، حيث تواجه هذه المسألة العديد من الصعوبات، وتاريخ العلم يشهد على ذلك، فكل الإنجازات الكبيرة التي حققها العلم على مر العصور لا يمكن فهمها من خلال منهج علمي واحد فقط ، فالعلم في تطوره اتبع مسارًا غير عقلاني من الناحية المنهجية فهو لم يستند إلى قواعد وأسس منهجية واضحة ومنظمة، فهو يسير في اتجاه غير محدد ومعقد، مليء بالأخطاء والتغيرات المفاجئة التي يصعب تفسيرها وفقاً للمناهج المعتمدة والمحددة، دون مراعاة الظروف التاريخية التي أثرت على التطورات العلمية؛ لذلك فلا يمكن أن تحدد ماهية العلم من خلال المنهج ، فمن غير المجدي تحويل العلم إلى بضع قواعد منهجية. (موسى. كريم ،2012، ص 362)

فلا وجود لمنهج علمي واحد محدد يُعتبر نموذجًا للبحث العلمي أو معيارًا ثابتًا لتحقيق أهداف الأبحاث العلمية؛ لإن أسس وإجراءات البحث العلمي ليست ثابتة، بل تتحدد بناءً على موضوع البحث وظروفه، ثم أن مقياس تقييمها وتعديلها أو تغييرها يجب أن يكون متوافقًا مع العمليات والمواضيع التي يتم البحث فيها، ولما كانت مواضيع البحث العلمي متعددة ومتنوعة وكانت هي التي تحدد المناهج البحثية المناسبة لها، فإنه يصبح من غير الممكن وجود قواعد ثابتة ومحددة تصلح لجميع مجالات البحث العلمي، فهذه الفكرة، وفقًا لرؤية فيرابند، غير ممكنة ومثالية، حيث تشبه في عدم واقعيتها الاعتقاد بوجود عقلانية كلية ثابتة، أو الفكرة التي تدعي وجود مقياس شامل قادر على قياس أي كتلة دون مراعاة الظروف المحيطة. (فيرابند. بول، 2000، ص 112، 113)

مبينًا أن تاريخ العلم قد شهد أنه في مقابل كل قاعدة منهجية يلتزم بها العلماء والباحثون، ظروفًا تتطلب تجاوزها أو تعديلها لتحقيق تقدم العلم، ويخلص إلى أن مناهج البحث لا تقدم صورة واضحة عن القواعد المنهجية التقريبية، وعلى الرغم من أن فييرابند يؤكد على رفض وجود قواعد منهجية، مستندًا في ذلك إلى قناعته بعدم جدواها في البحث العلمي، لكنه رغم ذلك يوافق على بعض القواعد المنهجية الأقل تطرفًا وتحديدا، لأنها تسهم ولو بشكل تقريبي، في تقدم العلم ويستند ذلك إلى مبدأين :الأول هو وفرة النظريات من خلال وضع وابتكار نظريات تتعارض مع المألوف، أما المبدأ الثاني فهو مبدأ التشبث والذي يعني الالتزام بالنظرية التي يُعتقد أنها تتيح تحقيق أفضل النتائج،ومع ذلك يظل فيرابند متمسكًابلاعقلانيته المنهجية مؤكدًا أنه لا يسعى إلى استبدال مجموعة من القواعد بأخرى، بل يهدف إلى التأكيد على أن كل مناهج البحث، دون استثناء، لا تصلح للتطبيق بشكل عام وإنما لها حدود معينة. (فيرابند. بول، دون تاريخ، ص 21)

يواصل فيرابند تأكيد رفضه للمنهج الواحد، مشددًا على أنه يعوق تقدم العلم ويشير إلى أن جميع القواعد المنهجية الصارمة التي يدافع عنها العلماء وفلاسفة العلم لم تعد مقبولة، إذ أنها إما ضعيفة أو غير ذات فائدة، ويستطرد فيرابند أنه من الممكن في المستقبل الوصول إلى منهج محدد يتضمن قواعد ثابتة، يمكّنه معالجة جميع إشكاليات البحث العلمي، (رغم أن ذلك يبدو مستحيل منطقيا تماما مثل الاعتقاد بإمكانية الوصول إلى نظرية علمية تستطيع تفسير جميع الظواهر الطبيعية)؛ ومع ذلك، فإن واقع البحث حتى الآن يفرض على القائمين عليه عدم التقيّد بمنهج علمي محدد وثابت. (فيرابند. بول، 2000، ص 113)

لذلك يؤكد فيرابند على أهمية الخروج ومخالفة المنهج السائد كشرط أساسي لتطور العلم، مشيرًا إلى أن هذه المخالفات ليست استثناءات أو هي نتيجة لنقص المعرفة، لكنها تعكس الحاجة الضرورية لإعادة تقييم القواعد المنهجية عند ظهور حقائق علمية جديدة؛ لا تستدعي تجاهلها فحسب، بل تتطلب اعتماد قواعد مضادة لها. (فيرابند. بول، دون تاريخ، ص 12)

بدأ فيرابند في تأسيس منهجيته اللاعقلانية من خلال مناقشة ونقد كل مناهج البحث العلمي لينتهي إلى إثبات أراءه؛ لقد وجه نقدًا حادًا لجميع المناهج سواء كانت تجريبية أو عقلية وهو لا يرفض هذه المناهج في جوهرها، لكنه يعارض اعتماد منهج واحد كمعيار شامل ومناسب للتطبيق في جميع العلوم والمعارف فواقع البحث العلمي لا يتماشى مع هذا التوجه، إذ لا يوجد منهج، مهما كانت دقته و موضوعيته، إلا وقد تجاوزه العلماء في مرحلة ما من مراحل البحث وتاريخ العلم يعد خير دليل على ذلك؛ فليس هناك منهج واحد قادر على كشف حقيقة الظواهر، فالعلم لا يقتصر على تنظيم وتجميع الحقائق المنفصلة، بل يتعدى ذلك إلى فهم العلاقات التي تربط بين هذه الحقائق، فضلاً عن تحليل خصائصها وتفسيرها، وهذا يتطلب استخدام عدة مناهج متنوعة لا منهج واحد؛ فالأمر يتجاوز المنهج الاستقرائي مفسحًاالمجال للمنهج العقلي بل أن الحدس والصدفة غالبًا ما تقومان بدور كبير في الكشوف العلمية، ثم أن اعتماد منهج واحد يحد من حرية البحث العلمي من خلال فرض مجموعة من القواعد والمعايير الصارمة وهذا يقتل روح المبادرة والابداع اللازمة لتطور العلم .

بعد أن قام فيرابند بإلغاء جميع مناهج البحث التي اعتمدتها فلسفة العلم وأفرغها من محتواها، دعا إلى تطوير منهجية جديدة ترتكز على شعاره المبتكر "anything goes" أو كل شيء مقبول"، (Feyerabend .P،1993, P9) الذي يعكس توجهه الفوضوي اللاعقلاني بشكل واضح، وقد سعى فيرابند إلى إثبات هذا المبدأ الذي يؤمن بأنه الوحيد الذي يتوافق مع متطلبات البحث العلمي من خلال استعراض مجموعة من الأحداث التاريخية والإنجازات التي ساهمت في تشكيل تاريخ العلم. ويعتبر أن هذه الإنجازات تدعم صحة هذا المبدأ، حيث لم تتحقق من خلال استخدام منهج واحد محدد، بل تم الوصول إليها من خلال مجموعة متنوعة من المناهج؛ يوضح فيرابند أن التعددية المنهجية تعني أن أي منهج يُعتبر مقبولًا طالما أنه يتناسب مع مشكلة البحث ويساهم في تقدم العلم. في المقابل، فإن الاعتماد على منهج واحد محدد في البحث العلمي يُعتبر بمثابة خنق للإبداع الضروري لتحقيق الإنجازات العلمية وإعاقة تقدمها. (الخولي. يمنى طريف، 2014، ص 422)

يعتقد فيرابند أن مبدأه القائل "كل شيء مقبول" قد واجه الكثير من الانتقادات نتيجة سوء فهمه، فالمبدأ لا يتناول النظرية العلمية، ولا يسعى إلى تطوير نظريات علمية جديدة، بل يركز على المعرفة التي تفسر لنا كيفية تقدم العلم، وهذه المعرفة لا تأتي من النظريات العلمية، بل تأتي من وجهات نظر متنوعة ومختلفة، ويعود هذا الفهم الخاطئ إلى ضحالة الفهم الحقيقي للموضوع من قبل المؤيدين والمعارضين على السواء ، فالمؤيدين الذين نعتهم فيرابند بالكسل يعتبرون أن هذا المبدأ يسهم في تسهيل عملية البحث ويجعلها أكثر وضوحًا، لكن هذا المبدأ جاء ليناقض التفسيرات العقلانية التي تسعى دائمًا إلى وضع معايير موضوعية. وتعتبر أن غيابها يقلل من قيمة العمل العلمي. في حين أن هذا المبدأ لا يعني بتسهيل البحث العلم لكنه يؤكد على ضرورة فحص ومراجعة جميع الإجراءات التي يعتبرها العلماء والفلاسفة علمية. (قطب. خالد، 2007، ص 46)

- **الاستقراء المعاكس والتطور العلمي:**

يُعد الاستقراء المعاكس من أهم النتائج المستخلصة من شعار فيرابند "كل شيء مقبول"، المقصود بهذا الاستقراء هو التأكيد على أهمية تبني فروض تتعارض مع النظريات العلمية السائدة والنتائج التجريبية المسلم بها ، وتاريخ العلم يؤكد أهمية هذا النوع من الاستقراء فتطور العلم لا يتحقق باستخدام منهج الاستقراء التجريبي الذي يقوم فقط على معطيات التجربة، و تنظيمها وفقًا للنظريات العلمية السائدة؛ وبذلك يفتقر المنهج الاستقرائي إلى القدرة على تزويد الإنسان بالمعارف الدقيقة، كما أنه يقيد حرية الفرد ويمنع فرص الإبداع والابتكار، ويدعو فيرابند إلى اعتماد الاستقراء المعاكس، لأنه يمنح الإنسان فرصة للإبداع والابتكار، لأنه يتيح إمكانية تبني فرضيات جديدة قد تتعارض مع النظريات السائدة والنتائج التجريبية التي تم التحقق منها سابقًا والعلم يتطور من خلال هذا النوع من الاستقراء، لأن التقدم العلمي لا يتم من خلال الاكتفاء بالنظريات الحالية وتبريرها، بل يتحقق من خلال قبول فرضيات جديدة تختلف عنها، حتى وإن كان ذلك يتطلب تجاوز القواعد المنهجية. "(Feyerabend .P ،1993 ، p40-43)

يستشهد فيرابند بأمثلة من تاريخ العلم لتأكيد أهمية الخروج عن القواعد المنهجية وتأثير ذلك على تقدم العلم. ويستند إلى غاليليو Galileo (1564-1642م) كدليل على أن العلم يتطور من خلال تبني أفكار وفروض تتعارض مع النظريات السائدة. فقد دافع غاليليو عن النموذج الكوبرنيكي الذي يتناقض مع الفهم الأرسطي السائد، من خلال اعتماد فروض تتعارض مع تلك النظرية لإثبات صحة النموذج الكوبرنيكي (Feyerabend. P ،1993.p 37)

العلم هو مشروع تطوري، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال استحضار جميع الفرضيات والنظريات التي تتعارض مع النظريات السائدة والحقائق التجريبية وهذا لا يعني أقصاؤها بالكامل، لكنه يعني أن شرط الاتساق، الذي يتطلب أن يكون الفرض الجديد متسقا مع النظريات المعتمدة، هو شرط غير منطقي، لأنه يفضل النظرية الأقدم على النظرية الأحسن، والفروض التي تتناقض مع النظريات المؤيدة تقدم أدلة لا يمكن الحصول عليها بطرق أخرى، مما يجعل تنوع النظريات مفيدًا في تقدم العلم. (Feyerabend .P ،1993, p.47-51),

في المقابل يقدم فيرابند مبدأ التشبث (the principle of tenacity) ويحث العلماء وفلاسفة العلم على اتباعه، ينص هذا المبدأ على أهمية اختيار النظرية التي تضمن تحقيق نتائج مثمرة وتفتح الأفق لاكتشافات جديدة؛ بمعنى أن الاختيار يعتمد على خصوبة النظرية وقدرتها على الاكتشاف، والتشبث بها حتى وإن كانت غير متوافقة مع النظريات السابقة. وهذا يجعل لكل نظرية أنصار ومؤيدون يدافعون عنها، ويعود فيرابند إلى تاريخ العلم ليستقي منه أدلة متعددة تدعم وجهة نظره. فهو يرى أن قانون جاليليو، الخاص بسقوط الأجسام، لم يكن متوافقًا مع قانون نيوتن I. Newton (1643 -1727 م) لحركة الأجسام، (حيث إن تسارع الجسم عند اقترابه من الأرض يكون ثابتًا عند جاليليو، بينما يكون هذا التسارع غير ثابت عند نيوتن) كما أن قوانين حركة الكواكب عند نيوتن مختلفة عن حركة الكواكب عند كبلر j.Kepler (1571 -1630). (فيرابند. بول، دون تاريخ، ص 22-23)

إن انتقاد فيرابند للمنهج لا يهدف إلى تقديم نظرية مثالية بديلة، بل يسعى إلى التحرر من التقاليد الجامدة والمعايير المطلقة التي تعيق العلم في سعيه لاكتشاف حقيقة العالم وطبيعة الإنسان، ومن خلال رفضه للعقلانية يسعى إلى تعزيز الحرية الفردية والتخلص من القيود التي تعوقها ورغم التحديات التي تواجه الإبداع والابتكار، فإن القواعد المنهجية المحددة تمثل عائقًا أمام تقدم العلم والمبدأ المنهجي الوحيد الذي يمكن التمسك به والدفاع عنه هو المبدأ الذي يقضي بقبول كل شيء، لأنه يعكس اللاعقلانية المرتبطة بالتعددية المنهجية، مما يتيح إمكانية إجراء المقارنات بين الأفكار وتعرض بدائل ووجهات نظر متعددة، مما يتيح الاستفادة من جميعها، بما في ذلك تلك التي تم استبعادها لعدم جدواها أو بسبب معارضة الآخرين. إن التعددية المنهجية تُعتبر الطريق الوحيد نحو تقدم العلم. (قطب. خالد، 2007، ص 44)

2- الجانب الابستمولوجي:

وتندرج تحت هذا الجانب العناصر الاتية:

- **النظرية العلمية عند فيرابند:**

يتسم مفهوم النظرية العلمية لدى فيرابند بخصوصية تميزه عن المفاهيم والتصورات الابستمولوجية الكلاسيكية والمعاصرة؛ فهو يعتقد أن العديد من هذه الاتجاهات لم تتمكن من تقديم تعريف دقيق للنظرية العلمية؛ والنظرية العلمية حسب مفهومه هي أداة محددة للنظر إلى العالم وفهمه، واعتماد على هذه النظريات يؤثر في معتقداتنا وتوقعاتنا، مما ينعكس بدوره على تجاربنا ورؤيتنا للواقع وهي بذلك تختلف من ملاحظ إلى آخر بسبب اختلاف معارف ومعتقدات وفروض الملاحظ. (قطب. خالد، 2018، ص 120)

بذلك يخالف فيرابند كل الآراء التي تربط النظرية العلمية بالتجربة الحسية، والتي تؤكد بأن التجربة الحسية هي المصدر الوحيد لفهم النظرية العلمية؛ هذه الرؤية كانت هي السائدة حتى الربع الأخير من القرن العشرين، سواء بالنسبة للنزعة الاستقرائية التي تبدأ بالتجربة الحسية وتنتهي إلى صياغة النظرية، أو النزعة الاستنباطية التي تنطلق من نظرية أو فرضيات وتختتم بالتجربة الحسية كمعيار لتقييم تلك النظرية؛ فالخبرة الحسية تعد عنصرًا أساسيًا في تطوير النظرية العلمية، سواء كان ذلك في إطار المنهج الاستقرائي أو الاستنباطي.(الخولي. يمنى طريف،2014 ،ص 131)،في حين أن فيرابند يرى أنه لا توجد علاقة ضرورية بين الخبرة الحسية والنظرية؛ لأنه يمكن قيام العلم دون الحاجة إلى خبرة حسية، ويوضح فيرابند وجهة نظره بالقول بإن الخبرة الحسية تلعب دورًا في العلم من ثلاث جوانب: الاختبار، وفهم نتائج الاختبار، واستيعاب النظرية؛ والاختبار هو عملية معقدة تحتاج إلى فرضيات مساعدة، كما أنها تتطلب استخدام أجهزة يقوم المراقب البشري بتشغيلها وتدوين ملاحظاته عنها ؛ أضف لذلك أن تفسير نتائج الاختبار يتم من خلال الحواس، فالنظرية لا يمكن فهمها إلا إذا تم ربطها بالتجربة أو كانت

لها صلة بالواقع، ويفند فيرابند ذلك معتبرًا أن إجراء الاختبار ليس أمرًا ضروريًا؛ إذ يمكن تقييم النظرية عن طريق إدخالها في جهاز الكمبيوتر وتزويده بالبيانات اللازمة لذلك، ويجيب للكمبيوتر ببساطة بنعم أو لا بشأن قيمة النظرية وما إذا كان الواقع يدعمها، دون الحاجة إلى إجراء الاختبار أو الاعتماد على خبرة حسية. (قطب. خالد، 2018، ص 123)

وفيما يخص دور الخبرة الحسية في فهم النظرية العلمية، كان يعُتقد أن النظرية تصبح مفهومة إذا ما تم ربطها بالخبرة الحسية ،بينما يرفض فيرابند ذلك ويؤكد أن النظرية لا توضع مقابل الخبرة الحسية ؛ لأن الخبرة الحسية تتكون بالتزامن مع الافتراضات النظرية وليس قبلها، ويسوق مثالا يدعم وجهة نظره بالطفل ووسائل الادراك عنده ؛فالطفل لا يمتلك عالماً إدراكيًا ثابتًايمكنه الاعتماد عليه لفهم وتفسير النظريات المعروضة أمامه، إلا أنه يمر بمراحل إدراكية متتابعة، حيث تتشكل لديه في كل مرحلة معرفة نظرية محددة، تساهم هذه المعرفة في تعزيز فهم الطفل وإدراكه من خلال تفاعله مع العلامات التي يقوم بتفسيرها، مما يمنحه القدرة على التفسير حتى في غياب الخبرة الحسية ويوظف فيرابند ذلك ليصل إلى نتيجة وهي أنه يمكن تصور وجود علم طبيعي دون الاعتماد على الخبرة الحسية، بل إن هذا التصور يُعتبر الطريقة الأكثر فعالية لاختبار أي فرضية تجريبية.(المرجع السابق ، ص 124)

يتناول فيرابند مفهوم وفرة النظريات وتنوع البدائل(The proliferation of principl)، فهو يرى أن تنوع وتعدد النظريات يعكس نضجًا معرفيًا، وهو المبدأ الملائم لفهم تاريخ العلم. فلا يمكن لنظرية واحدة أن تعكس الواقع بشكل كامل، كما أن الاعتماد على نظرية واحدة فقط قد يحجب جوانب الضعف والقصور الموجودة فيها، لذا يدعو فيرابند إلى ضرورة البحث عن بدائل نظرية ونظريات معارضة للنظريات ووجهات النظر السائدة، دون فرض أي قيود أو شروط، حتى وإن كانت هذه النظريات تحظى بتأييد كامل، يساهم مبدأ الوفرة والتنوع في تقدم العلم، بينما يعوق مبدأ الاتساق والتنظيم هذا التقدم، لأنه يقيّد القدرة على النقد واكتشاف العيوب والأخطاء، والمعرفة العلمية من وجهة نظره ليست مجرد محاولة لتقديم صورة مثالية عن الواقع، بل هي عملية مستمرة تهدف إلى تقديم بدائل جديدة فحتى النظريات التي قد تبدو غير مقبولة أو ضعيفة قد تحتوي على وجهات نظر تساهم في تعزيز المعرفة وتقدمها، ويعكس هذا الرأي رؤية جديدة ومتقدمة في فلسفة العلم. (موسى. كريم، 2012، ص368 -374)

- **نسبية المعرفة العلمية:**

النسبية Relativity مفهوم يتعارض مع الفكرة القائلة بوجود حقائق مطلقة. (صليبا. جميل، 1982 ،ص 466) ومذهب النسبية " Relativism هو مذهب ينكر وجود حقيقة ثابتة، ويعترف بأن كل معرفة هي معرفة نسبية. ويعني ذلك أن العقل البشري لا يستطيع استيعاب كل شيء، وأن الحقائق المطلقة لا يمكن إدراكها، والنسبية من المفاهيم التي تتناقض مع الأسس التي تستند إليها العقلانية، مثل الموضوعية والصدق والمنهج والمعايير الشاملة. وبالتالي، فإن النسبية تتعارض مع قيم ومعايير العقلانية، وتختلف آراء الأفراد والمجموعات حول صحة أو كذب نظرية معينة وفقًا للمذهب النسبي، وذلك بناءً على الأهداف التي تسعى المعرفة لتحقيقها؛ ففي المجتمعات الغربية، يُنظر إلى المعرفة كوسيلة للسيطرة على الطبيعة، بينما يتباين هذا الهدف في مجتمعات إنسانية أخرى، حيث يمكن أن يكون السعي نحو تحقيق السلام أو السعادة الإنسانية. (شالمرز. ألان، 1991، ص 106)

يصف فيرابند نفسه بأنه نسبي متحمس، حيث يعتبر أن النسبية هي الفلسفة الوحيدة التي يمكن اعتبارها إنسانية، لأنها تركز على العلاقات الإنسانية بدلاً من المفاهيم، (فيرابند. بول، دون تاريخ، ص 232) وهو يعتقد أيضًا أن العلم يتميز بالفوضى ولا يتبع نظامًا محددًا، وهو لا يقوم على مفهوم المطلق أو الموضوعية، حيث تتنوع المعرفة وتختلف من فرد لآخر، تُعد نسبية فيرابند تجسيدًا حديثًا لمفهوم النسبية، التي تعود أصولها إلى التراث الشكي في الفلسفة اليونانية. من خلال دراسة أفكار فيرابند، يتبين تأثره بالفكر السفسطائي الذي ظهر في الفلسفة اليونانية خلال القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، وهو لا يخفي ذلك ويصرح بإعجابه بفكر بروتاغوراس Protagoras، (487 -420 ق.م) خاصةً بمبدئه الذي ينص على أن "الإنسان مقياس كل شيء". ففلسفته بشكل عام ترتكز على هذا المبدأ، حيث يُعتبر الإنسان محور كل شيء ومصدر كل إبداع وأساس كل تطور، واعجابه به يعود لأنه يعزز من قيمة الأنسان ويشجع على تنوع القيم والتقاليد دون فرض أي منها على الآخرين، يتضح ذلك من خلال النزعة الشكية التي تتجلى بوضوح في جميع جوانب فلسفته، حيث يرفض كل ما هو مطلق، بما في ذلك القوانين العقلانية التي تدعم الحقائق اليقينية. (فيرابند. بول، دون تاريخ، ص 25)

يؤكد فيرابند بشكل واضح توجهه النسبي في جميع أبحاثه ومؤلفاته، من خلال تمسكه بفكرة أن قاعدة منهجية لها حدودًا معينة، مما ينفي بشكل قاطع وجود عقلانية شاملة؛ حيث يتم تحديد المنهج وفقًا لطبيعة المشكلة المطروحة، وهو يؤمن بأن العلم لا مكن أن يُحدد وفق شروط وقواعد بمعزل عن السياق الثقافي والرغبات والاحتياجات الشخصية، وهو يرفض التصورات العقلانية التي تحد من حرية الإنسان في البحث، فالمفاهيم التي تسعى فلسفة العلم إلى إثباتها والدفاع عنها؛ مثل الموضوعية والعقلانية والمنهج، هي في الحقيقة مفاهيم نسبية؛ لأنها نتاج تأثيرات إنسانية مثل الميل والخيال والحدس، وتختلف من نموذج لآخر ومن فيلسوف لآخر، وتختلف معانيها حسب السياق الذي تظهر فيه. جميع النظريات لها قيمة، ولا توجد نظرية تُعتبر متفوقة على الأخرى، فكلها تسهم في دعم العلم. (Feyerabend. P, 1993, p279,360,361)

كذلك تظهر توجهات فيرابند النسبية من خلال رفضه لفكرة وجود معايير ثابتة تتيح لأصحابها الادعاء بامتلاك الحقيقة، فهو يعتبر أن تقليص العلم إلى قوالب محددة يعوق التقدم العلمي، لأنه يحصر البحث في قضايا قديمة بدلاً من تشجيع الانطلاق نحو استكشاف طرق جديدة تتيح اكتساب جوانب جديدة من الحقيقة، بعبارة أخرى إذا كانت العقلانية تعتقد بوجود نظريات شاملة تحدد نطاق الحقائق الممكنة والمشكلات والأسئلة المطروحة، مما يستدعي من تطور العلم التكيف مع هذه المتطلبات، فإن النزعة النسبية التي تبناها فيرابند تبرز أهمية الجهود الفردية في تحقيق تقدم العلم، حيث تُعتبر الحرية الفردية الركيزة الأساسية لعمليتي الإبداع والابتكار، حتى وإن كان ذلك يفتقر إلى المنهجية، فإن التنوع والاختلاف في المعايير يتيح مجالاً واسعاً للعديد من الأطروحات، مما يسهم في إثراء البحث وتعزيزه، وبالتالي يدفع بعجلة العلم إلى الأمام ،و يتم ذلك من خلال تحرير الأفراد من القيود التي تفرضها المؤسسات والمناهج الرسمية على تفكيرهم، مما يفتح المجال لظهور مجموعة متنوعة من الأفكار والمعارف والتقاليد الأخرى. وعليه فأنه لا يمكن حصر العلم في نموذج واحد صارم يدعي أنه يمتلك الحقيقة المطلقة واليقينية.

فالمعرفة تتنوع وتختلف مصادرها ونتائجها، والحقائق التي يتم الوصول إليها ليست ثابتة، بل تخضع للنقد والمراجعة المستمرة. (فيرابند. بول، دون تاريخ، ص 25)

إن نسبية فيرابند تنكر كل المعايير الكلية والموضوعية في العلم؛ فالمعرفة الكلية ليست ضرورية وليست متاحة، وكل ما يمكن الوصول إليه هو وجهات نظر متنوعة، تكون صادقة على نحو نسبي فقط، ولا توجد آراء لا ترتبط بتقليد معين، (المرجع السابق، ص26) بمعنى أن المعرفة لا يمكن أن تكون موضوعية أو مطلقة، لأنها غالبًا ما تكون غير متاحة، فليس كل ما يقدمه العلم متاح، وما هو متوفر هو مجموعة من الآراء المتنوعة، التي قد تكون صحيحة في بعض جوانبها وهذه الآراء لا يمكن فصلها عن المعتقدات والمعارف الإنسانية، وتقييم نظرية علمية معينة على أنها صحيحة أو خاطئة يختلف من مجموعة علمية إلى أخرى، من ناحية أخرى يدعو فيرابند إلى تنوع القيم وتعدد المعارف، حيث لا يوجد علم يتفوق على آخر، فكل المعارف تحمل قيمتها طالما أنها تسهم في إثراء العلم.

وفقًا لرؤية فيرابند النسبية، تتميز الحقيقة بالتعدد والتنوع، مما يعني ضرورة قبول اختلاف الآراء وإتاحة الفرصة لنقدها ومناقشتها، وهذا يتناقض مع العقلانية التي يؤكد مؤيدوها أن قواعدهم المنهجية لا تقبل النقد أو المناقشة، إن التأمل في إنجازات العلم الحديث في مجالات الفيزياء النسبية وميكانيكا الكم وعلم الأحياء يبرز أهمية اعتماد نظام معرفي يعتمد على تنوع المناهج التعليمية، حيث يتواجد العلم جنبًا إلى جنب مع الأسطورة والسحر والتنجيم، فالمجال المعرفي يتميز بالاتساع والتعقيد، مما يجعل من الصعب تصنيفه في إطار محدد وثابت، وهذا يتماشى مع المبدأ القائل بأن كل شيء جائز والذي يُعتبر المبدأ الأساسي الذي يسهم في تحقيق التقدم العلمي ويفتح الأبواب أمام الإبداع والابتكار. (فيرابند. بول، 2000، ص 113)

استند فيرابند في مفهومه للنسبية بشكل أساسي إلى تاريخ العلم، حيث يشير إلى أن العلم قد شهد تحولات تاريخية على مر الزمن، فهو يتغير من مرحلة تاريخية إلى أخرى، مما يجعل العلم نسبياً بناءً على سياقه التاريخي؛ ورفض فيرابند النزعة اللاتاريخية، خاصة عند (الوضعية المنطقية) التي تفصل بين العلم وتاريخه. فهو يعتبر أن جميع النظريات والمناهج والحقائق العلمية التي تشكل المعرفة العلمية في لحظة معينة هي نتاج تحولات تاريخية، فالكثير من الاكتشافات والحقائق العلمية قد تم التوصل إليها في مرحلة تاريخية سابقة لكنها لا تظهر ولا يتم قبولها والاعتراف بها إلا في مراحل تاريخية لاحقة نتيجة لمجموعة من التحولات التاريخية المحيطة بالمعرفة العلمية، على سبيل المثال، كان الإغريق يمتلكون معارف علمية في مجالات الفلك والرياضيات، مما مكنهم من وضع نظريات علمية متقدمة، ومع ذلك، تأخر ظهور هذه النظريات حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر. ويعود ذلك إلى طبيعة الفترة التاريخية، حيث أعد العصر الحديث الأرضية المناسبة لإعادة إحياء الأفكار والنظريات الإغريقية.(Feyerabend .P,1993, p254)

- **اللامقايسة:**

يشير مفهوم اللامقايسة (incommensurability) إلى عدم قابلية النظريات العلمية للقياس المتكافئ أي أنه لا يمكن الحكم عليها باستخدام نفس المعايير أو المقاييس. فكل نظرية تمتلك إطارها الخاص ومفاهيمها وعالمها الفريد، لذلك لا يمكن تقييم نظرية أو الحكم عليها بناءً على نظرية سابقة أو لاحقة في سياق التطور العلمي، بل يجب أن يتم ذلك في إطار عصرها والتحديات والظروف العلمية التي تواجهها، مما يمنح كل نظرية معاييرها الخاصة. (الخولي. يمنى طريف ، 2000، ص 394)

أن أفكار فيرابند حول مفهوم اللامقايسة بين النظريات العلمية، يُعتبر أحد جوانب توجهه اللاعقلاني ، كما تعتبر أحد العناصر الأساسية في تحليله للعلم ،ويشير فيرابند إلى أنه من غير الممكن مقارنة نظريتين علميتين متنافستين، سواء كانتا متواجدتين في نفس الفترة الزمنية أو تتابعتا عبر التاريخ، لأن كل نظرية تتمتع بمعايير صلاحية فريدة خاصة بها؛ فالمعايير التي تؤدي إلى اعتماد هذه النظرية بدلاً من غيرها هي معايير ذاتية، و هي تتقارب في الواقع مع أحكام الذوق والأفكار الميتافيزيقية المسبقة ، بالإضافة إلى ذلك، التباعد الواضح بين المبادئ الأساسية لكل نظرية ، مما يجعل من المستحيل صياغة التصورات الجوهرية لإحدى النظريتين باستخدام مصطلحات النظرية الأخرى. كما أنه لا يمكن استنتاج بعض النتائج من إحدى النظريتين استنادًا إلى مبادئ النظرية المنافسة. (Feyerabend. P, 1962, Pp30- 31)

إن اعتماد فيرابند على مفهوم اللامقايسة ينطلق من فلسفته اللاعقلانية، حيث يشدد على عدم وجود معايير موضوعية تسمح بالمقارنة بين نظريات علمية مختلفة. ويعود ذلك إلى الخصوصية التجريبية التي تميز هذه النظريات، بالإضافة إلى العبارات الأساسية التي تستخدمها في صياغة مشاهداتها وبياناتها التجريبية؛ حيث إنه من المستحيل صياغة الجزيئات الأساسية لأي نظرية باستخدام مصطلحات نظرية أخرى، لأن الأسس التي تعتمد عليها النظريات المختلفة، والتي تتجلى في معاني العبارات المرتبطة بالملاحظات الأساسية ليست ثابتة. فهذه المعاني تتغير وفقًا لاختلاف النظريات التي تفسر موضوعًا معينًا، على الرغم من أن موضوع الدراسة يبقى كما هو. (فيرابند. بول، 2000، ص 86)

يستعرض فيرابند العديد من الأمثلة على النظريات التي لا يمكن مقارنتها، مثل المقارنة بين الميكانيكا الكلاسيكية وميكانيكا الكم، وكذلك بين نظرية قوة الاندفاع وميكانيكا نيوتن، بالإضافة إلى ثنائية المادة والروح، إن صفة اللامقايسة بين نظريتين متنافستين لا تعني أنه لا يمكن مقارنتهما بأي شكل من الأشكال، فهناك العديد من الطرق التي يمكن من خلالها إجراء هذه المقارنة ،حيث يمكن إجراء مقارنة بين النظريتين من خلال تحليل مجموعة من الحالات القابلة للملاحظة، وتقييم مدى توافق كل نظرية مع هذه الحالات، مع توضيح ذلك باستخدام مصطلحات كل نظرية بشكل منفصل. بالإضافة إلى ذلك، يمكن إجراء مقارنة وفقاً لرؤية فيرابند، من خلال فحص ما إذا كانت النظريتان متشابهتين ومتسقتين وقريبتين من بعضهما البعض أم لا. (شالمرز. ألان ، 1997، ص 188)

- **أنسنة العلم:**

تصل النزعة اللاعقلانية لدى فيرابند إلى ذروتها عندما يقرر أن العلم، شأنه شأن أنواع المعرفة الإنسانية الأخرى، فهولا يتمتع بتفوق خاص؛ بل هو مجرد ممارسة إنسانية، تمامًا كما هو الحال مع ضروب المعرفة الأخرى كالأسطورة و الشعر والرواية ...الخ ، وهذا ينسجم مع المشروع اللاعقلاني الذي تصوره فيرابند والذي جعله أساس لفهم المعرفة العلمية مخالفا بذلك التصور السائد للعلم حتى منتصف القرن العشرين الذي يعتبر العلم عملية بحث منهجية تهدف إلى البحث عن المعرفة، ويتميز بمنهجيته عن سائر أنواع المعرفة الأخرى، رأى فلاسفة العلم أن هذه المعارف تتسم بالفوضى وعدم الاستقرار وذلك بسبب عدم وجود قواعد منهجية علمية ثابتة ، حيث يُعتبر

المنهج العنصر الأساسي والثابت في أي معرفة تهدف إلى أن تكون علمية، هذا التقليد الذي وضعه الفلاسفة والعلماء قد عزز هيمنته على فلسفة العلم، حتى أصبح يُنظر إلى العلم كأنه مستقل عن سائر المعارف الإنسانية. (قطب. خالد،2007، ص31)، في حين يؤكد فيرابند. أن العلم في جوهره مشروع تحرري، ولا يمكن تحقيق طبيعته التحررية إلا من خلال تجاوز الأطر المنهجية الأحادية، فالعلم هو نتاج عملية البحث وليس نتيجة لاتباع قواعد محددة . وبالتالي، لا يمكننا تقييم العلم عبر قواعد ابستمولوجية مجردة ما لم تكن هذه القواعد ناتجة عن ممارسات إبستمولوجية تتغير باستمرار، إذ تفرض الممارسة العلمية التعدد المنهجي، لأن الواقع يثبت عدم وجود منهج واحد قادر على حل جميع المشكلات العلمية. (فيرابند. بول، دون تاريخ، ص88)

يوضح فيرابند أن تفوق العلم لا ينشأ من طبيعة العلم نفسها، بل يعود بشكل أساسي إلى النظرة التقديسية التي يحملها مؤيدوه، معتمدين على إنجازاته وموضوعيته وصرامة منهجه، هذا المنهج الذي ساهم في تحقيق نتائج متنوعة جعلته معيارًا للإقصاء المعرفي والحضاري، ونتيجة لذلك أصبح العلم سلطة تسيطر على العقول في مختلف المجالات، وقد عززت هذه الرؤية ما قدمه العلم من فهم وإدراك للطبيعة، بالإضافة إلى الإنجازات العملية التي حققها في الحياة. وقد أدى ذلك إلى تهميش جميع الأنشطة المعرفية، حيث تم تقييمها إما بالانكماش أو بالتغيير الجذري لتتوافق مع العلم ومنهجه، وهذا ما ساهم في هيمنة العلم كنموذج يُحتذى به، مما أدى إلى استبعاد جميع المعارف الإنسانية الأخرى. (فيرابند. بول، 2000 ص 87، ص 115)

إنطلاقًا من ذلك يرفض فيرابند الفصل والتمييز بين ضروب المعارف الإنسانية واصمًا ذلك الفصل بالاستبداد غير المسوغ معتبرًا أن ذلك يعود إلى إيمان العلماء بأن العلم الطبيعي وخاصة الفيزياء يعتبر مثالًا للعقلانية متفوقًا بذلك على كل أنواع المعارف الإنسانية دون أن يقدموا أي دليل يؤكد صحة هذا الإعتقاد، فدراستهم وفهمهم مقتصر على العلم فقط بينما تكون معرفتهم بالمعارف الاخرى سطحية ومبسطة ؛ وتماهيا مع ما انتهى إليه حول مفهوم اللامقايسة في العلم واستحالة المقارنة بين النظريات العلمية نجد أن فيرابند يؤكد استحالة وجود دليل قاطع وحاسم يثبت تفوق العلم على أشكال المعارف الأخرى، فالمقارنة بينهم تعتبر مستحيلة لأنها تستلزم الفهم العميق لطبيعة العلم ومناهجه وأهدافه فضلًا عن الفهم المماثل لطبيعة ومناهج وأهداف المعارف الأخرى وهو ما يعتبر تحديًا يرقى إلى درجة المستحيل لأنه يقتضي ضرورة دراسة كل ما يتعلق بهذه المعارف من حيث الآثار التاريخية والكتب والوثائق الأصلية وتقارير الاجتماعات بل وحتى الاحاديث الخاصة وغير ذلك من المراجع والمصادر (شالمرز . ألان، 1997، ص 191، 192)

ومادامت المفاضلة بين العلم والأنشطة المعرفية الأخرى قائمة على مقاييس علمية. فمن الطبيعي أن يكون الحكم المستند إلى هذه المقاييس يميل لصالح العلم على حساب المعارف الأخرى ، ثم أن تطور العلم قد حدث بفضل استخدامه للعديد من الطرق غير العلمية أكثر من استخدامه للطرق والأساليب العلمية ويقف تاريخ العلم شاهد على ذلك فالعلم لم يكتسب مكانته بسبب موضوعية نتائجه أو التزامه بقواعده المنهجية فحسب، بل تحقق ذلك عندما قام بخرق وتجاوز هذه المعايير والمبادئ العامة، وجعل من الممارسة العلمية مساحة أكثر تحررًا من القيود المنهجية، حيث تتفاعل فيها عناصر غير عقلانية مع أفكار إنسانية ، لا يمكن اعتبار العلم مجرد بُعد واحد عقلاني قائم على منهجية صارمة، بل هو مجال تتداخل فيه جميع الأبعاد الإنسانية التاريخية والحضارية .إنه نشاط إنساني يشارك في تشكيل معارفنا بنفس المستوى من الأهمية كغيره من الأنظمة المعرفية الأخرى .لذلك، لا يمكن التفريق أو التمييز بين علم وآخر، وبناء على ذلك يعارض فيرابند التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، حيث يعتبر أن جميع العلوم تحتوي على جانب إنساني، وأن العلوم الإنسانية بدورها تحمل معرفة .وعلى الرغم من وجود اختلاف كبير بين طبيعة أي نظرية فيزيائية وطبيعة رواية أو قصة، فإن مفهومي الذاتية والموضوعية يتداخلان بشكل متساوٍ في كلا المجالين، والعديد من النظريات العلمية انطلقت في بداياتها من تصورات ذاتية تأثرت بميول وأهواء العلماء، مما يجعل القول بالموضوعية المطلقة في العلم أمرًا غير ممكن. فالعلم ليس نظاماً معزولًا عن التأثيرات الإجتماعية، والنفسية، والثقافية المختلفة. (فيرابند. بول، دون تاريخ، ص 217)

أن تصوير فيرابند للعلم بأنه تقليد يحمل طابعًا إنسانيًا، كان بمثابة تمهيد مما لدمج جميع العلوم والمعارف الإنسانية في نشاط واحد حر، بعيدًا عن أي شكل من أشكال السلطة (Feyerabend. P, 1981, p17) يختفي فيه التمييز التقليدي القديم بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، حيث تُعتبر جميعها جزءًا من المعارف الإنسانية، ومع ذلك يحتفظ فيرابند بالفصل بين أنواع العلوم من جهة، والآداب والفنون من جهة أخرى؛ ورغم ذلك تتداخل الذاتية والموضوعية بشكل متساوٍ في مجالات العلوم والآداب والفنون. (فيرابند. بول، 1981، ص 217، 218)

بناء على ما سبق يرفض فيرابند فكرة أن العلم يتفوق على أنواع المعرفة الأخرى، ويعتبر أن الفصل والتمييز بين العلم وأشكال المعرفة المختلفة هو فصل تعسفي وغير مبرر ويعتقد أن هذا التمييز ينطلق من نقطة أساسية يعتقد العلماء أنها ثابتة دون أن يقدموا أي دليل يثبت صحتها يعتبرون أن العلم، وخاصة الفيزياء، يمثل نموذجًا للعقلانية، ويؤمنون بتفوقه على جميع أشكال المعرفة الأخرى دون أن يكون لديهم فهم عميق لتلك المعارف حيث تقتصر دراستهم الدقيقة على العلم فقط، بينما يكتفون بدراسة المعارف الأخرى بشكل سطحي يعارض فيرابند بشدة فكرة إمكانية وجود دليل قاطع يثبت تفوق العلم على أنواع المعارف الأخرى، ويعتبر أن المقارنة بين العلم وهذه المعارف غير ممكنة، إذ يتطلب إجراء هذه المقارنة فهم طبيعة وأهداف ومناهج العلم، بالإضافة إلى معرفة طبيعة وأهداف ومناهج أشكال المعارف الأخرى، يعتبر هذا الأمر تحديًا كبيرًا، إن لم يكن مستحيلاً، إذ يتطلب تحليل الآثار التاريخية، والكتب، والوثائق الأصلية، والرسائل، وتقارير الاجتماعات، والأحاديث الخاصة، بالإضافة إلى مصادر كثيرة أخرى. (شالمرز. ألان، 1997، ص 191، 192)

في السياق ذاته يشدد فيرابند على أنه لا يمكن فصل العلم عن الميتافيزيقا، حيث إن العلم استمد العديد من أفكاره من الميتافيزيقا في مجالات مثل الفلك والطب والديناميكا، فقد كانت هذه المجالات ستعاني من الركود والتخلف لولا الاستفادة من أفكار غير علمية مستمدة من معارف إنسانية قديمة ومذاهب ميتافيزيقية.(Feyerabend ..P. 1981, P3) لذلك يعتقد فيرابند أن الدعوات لتحرير العلم من الميتافيزيقا تعكس في جوهرها مواقف ميتافيزيقية. فهو يؤكد على أن العلم هو أحد أنواع التفكير المتعددة التي ابتكرها الإنسان، وليس بالضرورة أن يكون أفضلها، ولا يُعتبر العلم أرقى أنواع المعرفة إلا في نظر أولئك الذين لم يدركوا مزاياه وعيوبه. (فيرابند. بول، دون تاريخ، ص 30 ،31)

لتأكيد الطابع الإنساني للعلم، يرى فيرابند أن العلم يعكس معتقدات معينة. فالنظريات العلمية تمثل طرقًا محددة لفهم العالم، وهي تتأثر بمعتقداتنا وتؤثر فيها في الوقت ذاته؛ إذ إن ما ندركه يعتمد على ما نؤمن به، وكل نظرية علمية تفرض تجربتها الخاصة، ويوسع فيرابند من رؤيته السابقة، حيث يرى أن العلم يُعتبر إحدى الأيديولوجيات المتنافسة التي تهدف إلى تحقيق الهيمنة والسيطرة على المجتمع والدولة، فهو يعتقد أنه منذ بداية النهضة الأوروبية، بدأ العلم في خوض صراع أيديولوجي خاص مع الدين بشكل خاص، في تلك المرحلة، كانت النظرة السائدة للعلم تُعتبره قوة تحررية في مواجهة هيمنة الكنيسة. وهو يرى أن العلم لم يحقق هذه المكانة نتيجة لاكتشافه للحقيقة أو بفضل منهجه المطلق الصحيح، بل لأنه ساهم في تقليص تأثير الأيديولوجيات الأخرى، وعلى رأسها الدين، مما أفسح المجال لظهور أساليب جديدة في التفكير الإنساني. (المرجع السابق، ص 28)

لكن بعد أن انتصر العلم في الصراع الأيديولوجي، بدأ يتجلى كأيديولوجيا مهيمنة ومتفردة. ونتيجة لذلك، تخلّى العلم عن دوره التحرري وتحول إلى عقيدة صارمة لا يجرؤ أحد على مخالفتها، وأصبح دوره مشابهًا لدور الدين في المجتمع، ويشير فيرابند إلى أنه إذا كان من حق أي شخص اختيار الأيديولوجيا التي تناسبه بناءً على مبدأ فصل الدين عن الدولة، فإنه ينبغي أيضًا إضافة مبدأ آخر، وهو فصل الدولة عن العلم، ففي الحضارة الغربية، تطور العلم ليصبح أيديولوجيا أكثر تنظيماً وعنفاً وتطرفاً من أي أيديولوجيا دينية أو سياسية. ويعتبر فيرابند مبدأ فصل العلم عن الدولة فرصة لتحقيق مرحلة إنسانية، كما أنه يعد دفاعاً عن المجتمع ضد الأيديولوجيات، بما في ذلك العلم نفسه، لذلك فهو يدعوا الى النظر إلى الأيديولوجيا العلمية باعتبارها حكايات مثيرة تحتوي على أكاذيب ونصائح أخلاقية تحث على الالتزام بالقواعد المنهجية الدقيقة. (المرجع السابق، ص 28، ص 29)

أن وصف فيرابند للعلم بأنه تقليد ذو طابع إنساني يعتبر خطوة نحو دمج جميع العلوم والمعارف الإنسانية في إطار نشاط واحد حر، لا يهيمن عليه أي سلطة، إذ عمل فيرابند على صياغة فهم جديد للمعرفة بالكامل، محددًا إياها ضمن إطار إنساني شامل أطلق عليه اسم "التقاليد "تتلاشى فيه سيطرة العقل والتجربة معًا، مفسحاً المجال لتنوعها وتعددها بتأثير العوامل التاريخية والثقافية واختلاف الأنشطة البشرية وهذه التقاليد المعرفية لدى فيرابند تُعتبر ممارسة حرة تتداخل فيها مختلف الجوانب الإنسانية والعاطفية .لذلك كانت الطبيعة اللاعقلانية للعلم هي الوحيدة القادرة على استيعاب جوهر العلم وفهم مسار تطوره .ومن خلالها، تكتسب نظرية المعرفة القدرة على التحرر من هيمنة العقل والتجربة في آنٍ واحد.

(Feyerabend. P ,1981, P17).

ولقد أثارت أطروحات فيرابند جدلًا حادًا، ولاقت ردود فعل متباينة وانتقادات شديدة في أوساط فلاسفة العلم، فقد انقسمت الآراء حولها، إذ رفضها بعضهم بشدة، معتبرين أنها تقوض قيمة العلم والمنهجية العقلانية، دون تقديم حلول للمشاكل العلمية المطروحة، كما أنها تتضمن تعارضًا منطقيًا ضخمًا ؛لأنه ومن باب العجب أن يكون العلم يعمل بأسلوب لا عقلاني، وأن تكون اللاعقلانية هي المنهجية الوحيدة المنسجمة مع أفكار الإنسانية، وإن العلوم الغربية لديها تأثير مؤذٍ على المجتمع ، وأن التطور العلمي يسبب أضرار جسيمة تتلاشى أمام ما حققه هذا التقدم من فوائد.

لكن بالرغم من الانتقادات السابقة، فإن أفكار فيرابند قد ساهمت في تطور الدراسات حول سوسيولوجيا المعرفة، التي ركزت على الأساليب غير المنطقية التي يستخدمها العلماء في بناء النظريات العلمية ،كما لا يمكن إنكار سعيه لإضافة قيمة جديدة للعلم تتماشى مع البعد الإنساني وأفسحت المجال للتعدد المنهجي.

الخاتمة

من الصعب تلخيص أفكار فيرابند في دراسة واحدة بسبب وفرة الإنتاج الفكري والفلسفي الذي قدمه؛ ويظل مفهوم اللاعقلانية من أ برز ما طرحه في فلسفته والذي رفض فيه وضع ضوابط منهجية محددة للعلم وألغى إمكانية إجراء مقايسة بين النظريات العلمية، مقوضا بذلك أهم أسس العقلانية العلمية التي أتفقت فلسفة العلم بمختلف توجهاتها ومدارسها على تثبيتها. لأنه يعتقد أن العلم في جوهره هو مشروع لاعقلاني، ومن خصائص اللاعقلانية عنده أنها تساعد على التقدّم أكثر من العقلانية.

لقد انسجمت رؤية فيرابند الفلسفية وتناغمت مع طموحات الفكر والفلسفة في حقبة ما بعد الحداثة، وبالأخص فيما يخص نقده للعقلانية، والتوق إلى تحرير العقل والمجتمع من كل أشكال الهيمنة، تلك القيود التي تعيق الانطلاق الحر للفكر، سواء تجسدت هذه السيطرة في مؤسسات الدين أو في أطر العلم.

وبهذا نستطيع أن نقول بأن أفكار فيرابند لفلسفة علم، تختلف اختلافًا جوهريًا عن كل فلسفات العلم السابقة والمعاصرة لها. إنها فلسفة قدمت منظورًا عالميًا شاملاً، ليس من اليسير الإحاطة به بكلمات، فلسفة لا تظهر إلا عندما تتصادم مع ما يناقضها وهي لا تحتوي على أي مبادئ أو أسس ثابتة ماعدا اللاعقلانية والفوضوية، لذلك فهي تعاليم وارشادات أكثر مما هي نظرية.

قائمة المراجع:

المراجع العربية: أولًا

الجابري. محمد عابد،2009م، **تكوين العقل العربي**، ط 10، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

الخولي. يمنى طريف،2014، **فلسفة العلم في القرن العشرين** (الأصول، الحصاد الآفاق، المستقبلية)، ط.2، مؤسسة هنداوي.

قطب. خالد ،2005، **العقلانية العلمية**، دراسة نقدية، كراسات علمية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة.

قطب. خالد ،2007 م، **التعددية المنهجية في فلسفة العلم**، ط.1، القاهرة، المكتبة الأكاديمية.

قطب. خالد ،2018، أنسنة **العلم**، مقال جديد في العقلانية العلمية، ط.1، القاهرة، نيوبوك للنشر والتوزيع.

موسى. كريم ،2012، **فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية**، ط1، بيروت، دار الفارابي.

ثانيًا المراجع المترجمة:

أومنيس. رولان، 2008، **فلسفة الكوانتم**، فهم العلم المعاصر وتأويله، ترجمة أحمد، د.ط، العدد 350.، الكويت، سلسلة عالم المعرفة.

جينز. جيمس ،1981، **الفيزياء والفلسفة**، ترجمة جعفر رجب، د.ط، القاهرة، دار المعارف.

شالمرز. ألان، 1991، **نظريات العلم**، ترجمة الحسين سحبان وفؤاد الصفا، ط.1، المغرب، دار توبقال.

شالمرز. ألان، 1997، **ما هو العلم ؟**، ترجمة لطيفة ديب عرنوق، د.ط، دمشق، منشورات وزارة الثقافة.

فيرابند. بول، دون تاريخ، **ثلاث محاورات في المعرفة**، ترجمة محمد أحمد السيد، د.ط، الإسكندرية منشأة المعارف.

فيرابند. بول ،2000، **العلم في مجتمع حر**، ترجمة السيد نفادي، د.ط، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.

ثالثًا القواميس والمعاجم والموسوعات:

صليبا. جميل، 1982 م **المعجم الفلسفي**، ج 2، د. ط، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

لالاند. أندريه، 2001م، **موسوعة لالاند الفلسفية**، ترجمة خليل أحمد خليل، ج 3، ط2، بيروت، منشورات عويدات.

وهبة. مراد ،2007م، **المعجم الفلسفي**، د. ط، القاهرة، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر.

رابعًا المراجع الأجنبية:

Feyerabend. P. 1981, **Philosophical Papers**, Vol: Realism, Rationalism And Scientific Method, Cambridge University Press.

Feyerabend. P. 1993, **Against Method**, Revised Edition, Verso, London.

Feyerabend. P.1962, , Explanation, Reduction, and Empiricism, Contemporary Readings. **https://conservancy.umn.edu**

Popper. K, 1962, **Conjectures and Refutations**, The Growth of Scientific Knowledge, Basic Books, Publishers New York London, Manufactured.

Russell. B, 2009, **Human Knowledge**, Routledge Classics, London and New York.